الفصل الثاني

الآخر في الفكر العربي

الحوار العربي ـ الروسي، نموذجا

تمهيد

سنحاول في هذه الدراسة تبيان نظرة الإنسان العربي للآخر، الذي يختلف عنه في العرق والثقافة والمعتقد، وسنأخذ في هذه المقاربة نظرة الإنسان العربي إلى الإنسان الروسي في ظل العلاقات التاريخية والحضارية التي جمعت بينهما في أحقاب مختلفة من التاريخ، ومما أعطى لهذه العلاقة صورة متميزة التي نأخذها كمثال، هي أن الشعبين لم يستعمر أحدهما الآخر، ومن منطلق هذه العلاقة، يمكن أن نتساءل: في أي مسار يدخل الحوار العربي الروسي؟ هل هو حوار إيجابي يحاول تجاوز المواجهة والصدام والهيمنة؟ أم هو حوار يسعى إلى السيطرة والاحتواء؟وهل العلاقات الثقافية العربية الروسية تندرج ضمن إطار العلاقات الجديدة التي أنشأتها ضرورات العصر؟ أم هي أصيلة، أصالة تاريخ الشعبين في الحضارة الإنسانية؟.

ونشير في هذا السياق إلى أن ربط الصلات بين الشعبين، قد ساهم فيها العرب الذين اتصلوا بالروس بطرق مختلفة، كالتجارة والرحلات، والبعثات العلمية، من جهة، ومساهمة الاستشراق الروسي، من جهة أخرى، حيث أنه لعب دورا كبيرا في التعريف بالحضارتين العربية ـ الإسلامية، والروسية، وفي اعتقادنا أن أغلب

المستشرقين الروس كانوا قد نقلوا صورة حقيقية وواقعية عن العرب والمسلمين، عكس الصورة المشوهة عن العرب، التي نجدها عند بعض المستشرقين، وخاصة في أوروبا الغربية.

ولعل من بين المستشرقين الروس الذين ساهموا في التقريب بين الشعبين، والتعريف بالحضارتين، نذكر على وجه الخصوص، اغناطيوس كراتشوفسكي (١٨٨٣ ــ ١٩٥١م) الذي كما قيل، كان "مكتشف" الأدب العربي الحديث بالنسبة للغرب[١]، وأليكسي جورافسكي[٢]، و"فلاديمير سولوفيوف".دون أن ننسى مساهمة بعض علماء العرب الذين قاموا بنفس الدور، الذي أداه المستشرقون الروس، من أمثال: محمد عياد الطنطاوي الذي ألف كتابا، وصف فيه وصفا مثيرا، الحياة في روسيا، في الفترة التي قضاها فيها بين (١٨١٠ ــ ١٨٦٠م)[٣].

---

(١). أنا دولينينا، من تاريخ الاستشراق في الاتحاد السوفيتي، مجلة الاستشراق، تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، العدد الثاني، شباط ١٩٨٧م، ص٥٧.

(٢). يعتبر مؤلف، أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، من أهم المؤلفات التي كتبت في العقدين الأخيرين التي تتعرض إلى مسألة الحوار بين الأديان، لأنه كما يقال لا سلام بين البشرية ما لم يكن هناك حوار بين الأديان، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية، د. خلف محمد الجراد، وراجعه د. محمود حمدي زقزوق، ونشرته، عالم المعرفة، التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة ١٩٩٦م.

(٣). أنا دولينينا، من تاريخ الاستشراق في الاتحاد السوفيتي، ص٥٦.

أولا: في تاريخ الحوار الحضاري والتثاقفي العربي الروسي

في اعتقادنا أن روسيا تمثل نمطا مميزا للحوار الإنساني، لأن الحوار فيها، لا يأخذ شكلا ثنائيا، فحسب، بل شكلا متعدد الأطراف، لأن روسيا هي بلد شرقي وفي نفس الوقت غربي، يشتمل على حضارات متعددة الأوجه والأعراق، ففي كل طرف من أطرافها يوجد شكل من الحوار، وذلك على اعتبار موقعها الجغرافي المركزي بين آسيا وأوربا، مما يجعلها تساهم في عملية الاتصال بين الشعوب، بألوان من الثقافات والحضارات.

كما أن الاتحاد السوفياتي ـــ وهو في أوج توسعاته ـــ لم يستعمر أية منطقة عربية، ولعل ذلك هو الذي جعل الشعبين على مر العصور يكنان لبعضهما البعض الاحترام المتبادل في ظل الحوار الحضاري، وقد كان ذلك حتى على مستوى الأنظمة السياسية حيث، ((كانت كافة الأنظمة العربية بدون استثناء، صديقة للاتحاد السوفياتي، ومعادية للشيوعية في نفس الوقت))[1].

مما سبق، يمكن القول أن الحوار الحضاري والثقافي العربي الروسي لم ينقطع عبر التاريخ الطويل للمجتمعين، ولكن ذلك الحوار قد يزيد ويتقدم في التفاعل والتكامل، وقد يتناقص بحسب الظروف التي تطبع حياة المجتمعين في كل حقبة تاريخية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد استعان العرب بروسيا القيصرية أثناء محاولتهم الاستقلال عن تركيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ لجأ إليها كل

---

(١). خيري عزيز، حول الإستراتيجية السوفيتية تجاه العالم العربي، قضايا عربية، السنة الثامنة العدد الأول، كانون الثاني/يناير ١٩٨١م، ص١٥٤.

من محمد علي، وظاهر العمر، والي عكا، عندما حاول تأسيس دولة مستقلة على جزء من فلسطين وسوريا[1]. وكذلك الحال بالنسبة للدول العربية التي حاولت الاستقلال والبناء في القرن العشرين، سواء في عهد روسيا القيصرية، أو في عهد الاتحاد السوفيتي.

إن النظرة التي كانت تطبع علاقات روسيا بالعرب، في عهد الاتحاد السوفييتي على وجه الخصوص، عندما كانت تساعد الدول العربية للحصول على استقلالها والتخلص من السيطرة الغربية[2]، إنما يعني ذلك أن كل دولة تحصل على استقلالها، هي صديقة، وحليفة في نفس الوقت، للاتحاد السوفيتي في مواجهة الغرب، ومن ثم كان يعمل على مساعدة تلك الدول في تنمية ذاتها. وفي هذا الشأن، قال يوما، الرئيس المصري الراحل، أنور السادات، بعد الانتهاء من بناء السد العالي: ((أن الدعم السوفيتي لنا في بناء السد العالي.. لم يكن أول ولا آخر دعم قدم لنا.. أو بالأصح قدم تعبيرا عن آمال الحرية والسلام للشعوب المتطلعة إليها.. والمتمردة على الاستغلال الاستعماري والقهر الإمبريالي))[3].

---

(١). المرجع نفسه، ص٤٣.

(٢). للمزيد من الاطلاع حول موضوع مساعدة الاتحاد السوفياتي للعرب، راجع: خيري عزيز، حول الإستراتيجية السوفيتية تجاه العالم العربي، ص١٥٠ وما بعدها.

(٣). الرئيس المصري أنور السادات، كلمة ألقاها في احتفال أسوان بانتهاء بناء السد العالي، ١٩٧١/١/١٥م، الوثائق العربية ١٩٧١م، مكتبة يافث التذكارية الجامعة الأمريكية في بيروت، ص٦٢.

وقد تركزت الأبحاث في عهد الاتحاد السوفياتي على فهم الثقافة الغربية ولغتها، فهما علميا دقيقا، وفي ذلك يقول المستشرق الروسي، فلاديمير شاغال: ((إن إقامة وتطوير العلاقات مع الشعوب العربية وتوسيعها الشامل، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية حين ظهرت على خريطة العالم مجموعة من الأقطار العربية المستقلة، لم تتطلب إعداد الكوادر الكفؤة فحسب، بل ووضع الأساس الميتولدولوجي الذي يتفق ومتطلبات العلم المعاصر لإجراء الأبحاث العلمية في مجال اللغة والأدب والثقافة العربية))[1]. وفي نفس هذا الإطار، فإن العلاقات التي كانت تربط روسيا بالعرب، عبر تاريخها الطويل، هي علاقات مثالية، باعتبار أنها لم تكن علاقات مصلحية، فحسب، بل إستراتيجية كذلك.

ومما ساهم فيه الاتحاد السوفييتي ـ سابقا ـ هو فض النزاعات العربية ـ العربية، كما كان ذلك، مثلا، بالنسبة للنزاع الذي وقع بين الجيش الأردني والفدائيين الفلسطينيين، وموافقته على الاتفاق المبرم بينهما سنة ١٩٧٠م، حيث أيد الاتحاد السوفياتي آنذاك: ((جهود الدول العربية التي بذلت من أجل تهدئة الأوضاع))[2]، غير أن الملاحظ في العلاقات العربية الروسية، في تسعينيات القرن الماضي، أنها قد شهدت فتورا وتراجعا، نظرا للتغيرات العالمية، وهو ما أشار إليه وزير الخارجية الروسي "إيغور إيفانوف"، حين قال:((إن علاقاتنا قد شهدت تراجعًا

---

(١). فلاديمير شاغال، دراسة اللغة العربية والأدب العربي في الاستشراق السوفيتي، مجلة الاستشراق، العدد٢، ص٦٠.

(٢). أحمد ماضي، موقف الاستشراق السوفياتي من القضية العربية، مجلة الفكر العربي المعاصر، تصدر عن مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد الثالث، تموز ١٩٨٠م، ص ١١٣.

حادًا –للأسف– في أوائل التسعينيات مع البلدان العربيَّة، التي لدينا معها علاقات تقليدية ومع بلدان المنطقة بشكل عام، لكن في السنوات الأخيرة –وبفضل جهودنا المكثفة– فإننا نلاحظ الآن عودة مُطردة وثابتة للعلاقات بيننا وبين مختلف بلدان المنطقة، ونتلمس ذلك في مجال الحوار السياسي كما في المجال الاقتصادي، حيث يزداد التبادل التجاري بين بلداننا، وكذلك المشاريع الاستثماريَّة))[1].

إن ما يمكن التأكيد عليه، في هذا السياق، هو أن العلاقات العربية – الروسية، لم تقتصر على التأييد والمساندة الروسية للقضايا العربية، بالمال أو السلاح، أو الخبرات العلمية والعسكرية، وإنما شمل ذلك التأييد، عمل تنظيري و تأصيلي للقضايا العربية – إن لم نقل تبني لها في بعض الأحيان – أي أنها تجاوزت الجانب المادي، المساند بالسلاح من أجل التحرر من السيطرة الاستعمارية، إلى موقف تأصيلي للقضايا العربية، أيضا، يشمل العمل على توضيح وسائلها، و تحديد غاياتها، وخصوصا بالنسبة للقضية الفلسطينية حيث كانت روسيا من المؤصلين لها ولأهدافها، فالباحثون السوفيات، كما يقول أحمد ماضي، لم يقصروا موقفهم على دعم الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني فقط، بل حاولوا التأصيل لها.حيث أنهم اعتبروا أن الشعب الفلسطيني مثله مثل أي شعب من شعوب الأرض قاطبة ينبغي أن يتمتع بالحقوق التي لا تتجزأ ولا يمكن إبطالها[2].

---

(١). جاء قول "إيغور إيفانوف" في تصريح له لبرنامج لقاء اليوم بقناة "الجزيرة" الذي بثه بتاريخ ١٦/١١/٢٠٠٠.

(٢). راجع: أحمد ماضي، موقف الاستشراق السوفياتي من القضية العربية، ص١١٧.

ثانيًا: التبادل الثقافي ودوره في تنمية الحوار العربي الروسي

إن الشعبين العربي والروسي مطالبين بالعمل معاً من أجل بناء مستقبل مشرك يرتكز على التعاون، والتقارب، ويعمل على تطوير آليات الحوار بينهما. ويمكن أن يتدعم ذلك أكثر من خلال تفعيل آليات التبادل والتكامل الثقافي والاقتصادي الذي تتجاوز فيه العلاقات بين البلدين النظرة الإيديولوجية الضيقة، وخصوصا تلك التي كانت في عهد الاتحاد السوفياتي، إضافة إلى ضرورة تطوير آليات الحوار وتنظيمها في إطار أسمى من الإيديولوجية الظرفية، التي تنتهي بانتهاء ظرفها، إذ نلاحظ أن صيرورة العلاقات العربية الروسية، في ظل تاريخها الطويل، كانت ــ في رأينا ــ مؤسسة على مبادىء مستمرة، ولم تكن مؤسسة على ظروف ومصالح آنية.

وتظهر متانة العلاقات العربية الروسية، من خلال استمراريتها في كل الأنظمة السياسية المختلفة التي مرت بها روسيا، ومن ثم فإن الحوار بين الشعبين في ظل هذه الاستمرارية، قد تحول إلى صداقة بين الشعبين، تنتهي أمامها كل المصالح الظرفية، وعلى ذلك فإن تلك الصداقة، هي التي وحدها تكون قادرة على إنشاء عالم جديد، وعلاقات جديدة، بين الشعبين، تحقق بينهما الأخوة والسلام.

ويمكن القول، أن تطوير آليات الحوار العربي الروسي، يتم في مجالات متعددة، منها: مجال العلوم والفنون، ومجال الصحة، ومجال السياحة والأسفار، وهي مجالات ترتبط كلها بين الأفراد من جهة، ومؤسسات الشعبين، من جهة أخرى، كما يتم تطوير آليات الحوار بطريق ربط علاقات أكاديمية من خلال المؤسسات التعليمية، والجامعية، على وجه الخصوص، والقيام بتوأمة المؤسسات التعليمية،

والجامعية، بين روسيا والبلدان العربية، كما هو الحال، على سبيل المثال، بين جامعة عنابة بالجزائر والعديد من الجامعات الروسية[1]، حيث اتفق الطرفان على التعاون البيداغوجي بين الجامعات، وتسهيل تنقل الأساتذة والباحثين بينها، وتبادل البرامج التعليمية، وغيرها من الميادين المرتبطة بالجامعة التي تستطيع تزويد الحوار بين الشعبين بدراسات أكاديمية تكون موضوعية ومحايدة، ترتكز على ما يقدمه العلم ومناهجه، من مستجدات، دون أن تخضع تلك الدراسات، إلى لمذهبية، أو إلى الظرفية السياسية. إنه في هذا الإطار وحده تتجلى معاني الحوار الحقيقي، بين الشعبين، وتترسخ أهدافه الإنسانية بصورة أعمق وأكمل.

إن دعم تطوير آليات الحوار، والارتقاء بها، إلى مجالات أفسح وأوسع، يجرنا إلى طرح ضرورة أخرى، تتمثل في تدعيم تعلم اللغتين للشعبين: العربية للروس، والروسية للعرب، لأن اللغة من أهم آليات الحوار وأساليبه، كما كان الحال بالنسبة لروسيا في عهد الاتحاد السوفيتي، عندما كان مجموعة من الأكاديميين الروس يقومون بدراسة اللغة العربية، دراسة علمية أكاديمية، حيث كان معهد الاستشراق في روسيا، الذي يهتم بالدراسات الاستشراقية تابعا لأكاديمية العلوم في موسكو. وكان من أبرز أولئك الأكاديميين، الذين عملوا في هذا الحقل، وتعلموا العربية، وألفوا

---

(١). الجامعات الروسية التي تم الاتفاق معها هي: جامعة موسكو للعلوم الاقتصادية والإعلام الآلي وعلم النفس وعلم الاجتماع، وجامعة "ستانكين"التكنولوجية لموسكو، وجامعة علوم الطاقة والعلوم الإلكترونية والميكانيك، وجامعة المناجم لنفس المدينة.النصر، يومية وطنية إخبارية، تصدر بقسنطينة، الجزائر، الثلاثاء ١٣ ماي، ٢٠٠٣، العدد ١٠٩٢١.

فيها: ((إيغناتي كراتشوفسكي وأغافانغيل كريمسكي ونيقولاي يوشمانوف وغيورغي تسيريتيلي وخارلامبي بارانوف[1] وغيرهم))[2].

إضافة إلى أن آليات الحوار، يمكن أن تتدعم أكثر، في مجال تبادل المنشورات والمطبوعات بين الشعبين ــ وخصوصا الكتب والمجلات ــ وضرورة ترجمتها إلى اللغتين لكي تستطيع الإطلاع عليها فئات مختلفة من الشعبين، على أن تتكثف المؤلفات، والمعاجم القاموسية (عربي روسي، وروسي عربي)، للغتين، وذلك لتسهيل عملية القراءة، وتبادل المعرفة بينهما.

إن روسيا والعرب مطالبان اليوم، بتنسيق المواقف بينهما على المستوى الخارجي، في ظل التكتلات الجديدة في العالم، للوقوف في وجه التشكل الجديد للبشرية في قطبية واحدة، مما قد يعني ذلك التشكل سيطرة من نوع جديد، ولعل ذلك ما سعى إليه الشعبان على مر العصور.

على أن التبادل الاقتصادي بين الشعبين، يعتبر من أسس آليات الحوار، فالعنصر الاقتصادي يمثل دورا كبيرا في التقارب بين الشعوب الأمم، في كل الأزمنة والأمكنة، ويمكن أن يتجلى هذا التبادل بين روسيا والعرب، من خلال تبادل المواد الأولية التي تمتلكها الدول العربية، والمواد المصنعة التي تحوزها روسيا. كما يمكن لهذه الأخيرة ترقية البنية الاقتصادية للدول العربية، بما توصلت إليه من تكنولوجية حديثة مرتبطة بالتحولات الاقتصادية التي يشهدها العالم، إضافة إلى ما يمكن أن تقدمه روسيا من مساعدات، على إنجاز المشاريع الكبرى في الدول العربية، التي تبقى رمزا

---

(١). صاحب القاموس العربي الروسي.

(٢). فلاديمير شاغال، دراسة اللغة العربية والأدب العربي في الاستشراق السوفيتي، ص٦١.

على الصداقة بين الشعبين، مثل مشروع بناء السد العالي في مصر، الذي سلاح الاتحاد السوفيتي في إنجازه.

على هذا الأساس تتدعم آليات الحوار، بالتعاون التجاري والاقتصادي بين الشعبين، على اعتبار أن المجالات الاقتصادية، كانت ولا زالت على مر العصور أهم الروافد والمنافذ التي تنتقل من خلالها الثقافة من أمة لأخرى، ومن خلالها أيضا تتكون العلاقات والصداقات، بين الشعوب والأمم.

وهكذا، فإن نجاح الحوار وتحقيق أهدافه بين الشعبين، لا يمكن أن يتم إلا إذا احترم العرب والروس كل المواثيق والعهود التي يبرمونها في ضبط علاقاتهم الثنائية، ولعل هذا المعنى الأخلاقي، في احترام العهود والمواثيق، هو الذي أشار إليه "هانس كينج"، عندما قال: ((لا تعايش إنساني من دون أخلاق عالمية بين الأمم، لاسلام بين الأمم من دون سلام بين الديانات، لا سلام بين الديانات من دور حوار بينها))[1]، وذلك على اعتبار أن الدين يلعب دورا هاما في الثقافة والحضارة، كما أشار محمد أركون، إلى أن الدين، هو الذي يؤدي إلى الانتقال من التصور إلى الممارسة، أو من التفكير إلى الفعل والتنفيذ، فكثير من الصراعات التي يعيشها العالم اليوم وحتى في داخل القطر الواحد، سببها التعصب الديني، بحجة الدفاع عن الحقيقة الدينية، مما جعل البعض يقول أن الدين هو عنصر بلبلة ومسرح للعنف في المجتمع[2].

---

(١). هانس كينغ، مشروع أخلاقي عالمي، دور الديانات في السلام العالمي، ترجمة، جوزيف معلوف، وأرسولاعلاف، المكتبة البوليسية جونيه، لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٦٧.

(٢). المطران كيرلس سليم بسترس، أفكار وآراء، في الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك، ص ٢٠٧.

واستنادا إلى هذه المعطيات، في العلاقات التاريخية بين الشعبين، فنحن اليـــوم مطالبون باستعادتها، وتجديدها، على الوجه الذي يحقق مصلحة الشعبين، ومصلحة الشعوب الأخرى.